حوليات آداب عين شمس المجلد ٤٧ (عدد إبريل – يونيه ٢٠١٩)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

مشهد الطُّوفان في الخطاب القرآنيّ
دراسة في الأسلوبيَّة التداوليَّة و فكر ما بعد الحداثة

محمَّد جعفر العارضيّ *

العراق – جامعة القادسية – كلية الآدب

المستخلص

من تجلّيات هذه المقاربة أن تبدَّت مجموعة من الثنائيات التحليليَّة الدلاليَّة كثنائيَّة الثبات و الحركة التي استوعبت مشهد "الطُّوفان" الذي يعرضه الخطاب القرآنيّ بلحاظيه السماويّ و الأرضيّ. و ثنائيَّة الزمن الطبيعيّ و الزمن النصيّ التداوليّ التي تدفع نظر المحلّل التداوليّ إلى استشعار الزمن الأقصر لهذا الحدث الطبيعيّ الخارق، و استشعار وحدة مكانه. في حركيَّة مخصوصة للسفينة النبويَّة التي تحتمل الترميز فضلًا عن الواقعيَّة؛ فتأتي الثنائيَّة الثالثة.

يظهر أنَّ هذه الثنائيَّات تتوالى لإنتاج خطاب طوفانيّ ينفتح على مقولات ثقافيَّة تتضافر؛ لتحقّق مقولاتها الدلاليَّة الكبرى تلك في نسق من العلائق النصيَّة التي تعتمد المقاميَّة في تكاملها و إنتاجها. ما يجعل المحلّل اللسانيّ أمام مشهد يقبل القراءة المتعدِّدة بلحاظ اللسانيات الدلاليَّة التداوليَّة.

الكلمات الدلاليَّة: مشهد الطُّوفان؛ الخطاب القرآنيّ؛ الثنائيَّات الدلاليَّة؛ الحلُّ التداوليّ؛ الصورة الغرائبيَّة؛ إعادة الهلاك؛ العدل المجتمعيّ.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠١٧.

يعمد هذا البحث إلى النظر اللسانيّ التحليليّ في "طُوفان نوح عليه السلام" من خلال الكلاميَّة القرآنيَّة التي أحدثت مفارقة أسلوبيَّة في توصيله و اللفت إليه، على المحلّل اللسانيّ أن يتلمَّس تعبيريَّتها من خلال الوقوف على ثنائيَّة إمكانات النظام اللسانيّ، و أسلوبيَّة الخطاب الكلاميّ الداعي إلى إنتاج قارئ يعتمد المقاميَّة و التداوليَّة بينه و بين هذا الخطاب معتمدًا الممرات الأسلوبيَّة التي يخلقها النص، و يكتشفها المحلّل التداوليّ و يسير فيها ليصل من خلالها وحدها إلى إنتاج المنظومة الكاملة للمعنى. و من هنا يقف البحث على مشهد الطُّوفان في الخطاب القرآنيّ في ضوء معطيات تحليل الخطاب؛ وصولًا إلى الخاصَّة الخطابيَّة الطُّوفانيَّة في آيات الإعلان عن وقوع الحدث، و آيات الإعلان عن توقُّفه في سورتي هود و القمر المباركتين، و ذلك من خلال النظر الأسلوبيّ التداوليّ في عناصر النص الطُّوفانيّ متمثّلة في أربع فقرات تقرأ "الطُّوفان و التشخيص بين الأسلوب و الصورة"، و "الطُّوفان بين دوالّ الحركة و دوالّ الثبات"، و "الطُّوفان بين الزمن الطبيعيّ و الزمن الأسلوبيّ". فضلًا عن فقرة تنظيريَّة "في الأسلوبيَّة و التداوليَّة و نظر ما بعد الحداثة". هذه العناصر التحليلية مثّلت فقرات البحث، الذي تبنَّى النظر التحليليّ التداوليّ الناظر إلى أثر الحدث اللسانيّ في الحدث المجتمعيّ بلحاظ فكريّ تنمويّ يتطلّع إلى الإرشاد و تنمية الذات، و أدوات الفعل الإلهيّ في ذلك.

لعلّني أجد في الحلّ التداوليّ ما يؤسّس إلى فهم منظومة "الطُّوفان" كما قدَّمها الخطاب القرآنيّ، أردت الحلَّ التداوليّ لهذه المنظومة مكانًا و زمانًا و غايات. و ذلك كلُّه يأتي من خلال التفكيك لشبكة المعنى التواصليّ من خلال المنظومة المعارفيَّة السياقيَّة الموسَّعة، و النظر في هذا المعنى بلحاظ تعدديَّته، و تكريس حالة من حالات سيمياء الصورة بنسبة ما في ضوء ما تتبنَّاه فلسفة ما بعد الحداثة، فضلًا عن تكريس معطيات السياق الخارجيّ و المرجعيّ؛ لتكوين انفتاح دلاليّ إيجابيّ، و إيجاد حالة من الانسجام بين الثنائيَّات المتقابلة.

و في هذا السياق وجدت أنَّ قراءته ينبغي أن تكون قراءة ذات آفاق نصيَّة تتطلّع إلى "السبك" و "القصديَّة" و "الإعلاميَّة" و "الموقفيَّة"، و ما يصاحب ذلك من تقنيات تركيبيَّة و دلاليَّة من جهة، و آفاق اجتماعيَّة و معارفيَّة من جهة أخرى تتساوق مع النظر اللسانيّ التداوليّ السياقيّ. معنى هذا أنّني لم اقتصر في هذا التحليل على المقولات القارَّة في المنظومة التفسيريَّة، بل انطلقت منها إلى مقولات أو تصوُّرات نابعة من القراءة التداوليَّة للمعنى، و الركون إلى السياق الخارجيّ و المرجعيّ؛ لغرض إنتاجه إنتاجًا موسَّعًا ينفتح على مضمرات النص و نسقه الدلاليّ ذي الغايات الإصلاحيَّة الكبرى ذات التنوُّع المغزويّ الذي تجلّى في تنوُّع الدوالّ الخطابيَّة التي جاءت مكثّفة الدلالة. مع استثمار مقولات فكر ما بعد الحداثة و تعاطيها مع سيميائيَّة الصورة التي كانت ذات لحاظات غرائبيَّة عند توظيف مشهد "الطُّوفان". و غير بعيد عنَّا في هذا السياق ما لذلك من ارتباط بالثنائيَّات التقابليَّة في سياق المشهد الطُّوفانيّ.

١- في الأسلوبيَّة و التداوليَّة و نظر ما بعد الحداثة:

على الرغم من أنَّ ((الحداثة مشروع لم يكتمل)) (سبيلا، بنعبد العالي، ٢٠٠٧: ص٤٨)، غير أنَّ ما بعد الحداثة Postmodernity (١٩٣٠ – ١٩٩٠) كينونة قائمة و وجود له مطالبه و ضروراته الفكريَّة و الموضوعيَّة المهمَّة، إذ يقوم فكرها على ((مجموعة الثقافات أو التأويلات الخلافيَّة التي تولّد قدرًا من الارتياب حيال موضوعيَّة الحقيقة و التاريخ و المعايير و الطباع المتعيَّنة و الهويَّات المتماسكة)) (سبيلا، بنعبد العالي، ٢٠٠٧: ص١٠). و من جهة أخرى يظلُّ مفهوم ما بعد الحداثة مفهومًا إشكاليًّا مرتبطًا ببنية مشاعر ثقافة المجتمع، و يظلُّ أيضًا مصطلحه ذا تعدُّد، إذ يعبَّر عنه بالحداثة الجذريَّة مرَّة، و حالة

ما بعد الحداثة مرَّة أخرى. غير أنَّ الثابت هنا أنَّ مصطلح ما بعد الحداثة نشأ في حقل الدراسات النقديَّة، و منه انتقل إلى التوظيف في حقول معرفيَّة أخر كالفلسفة و الاجتماع و السياسة و اللغويَّات و ميادين التحليل النفسيّ و مسائل الفكر الدينيّ (مصطفى، ٢٠١٢: ص٢٠،١١-٢٤).

و على الرغم من أنَّ فلسفة ما بعد الحداثة تعتمد سيميائيَّة الصورة على نحو كبير؛ إذ تهيمن عليها بوصفها علامة سيميائيَّة معرفية كبرى، و تعمل على تقويض الفعل اللسانيّ و توسيع مفهوم الخطاب بما لا يقتصر على اللسانيّ منه. غير أنَّ هذه الفلسفة تقوم من جهة أخرى و بشكل كبير أيضًا على أسس تعدديَّة المعنى و سماته، فضلًا عن السياق الخارجيّ و المرجعيّ؛ لتنتج حالة من الانفتاح الدلاليّ الإيجابيّ من خلال استحضار المعارف الخلفيَّة المشتركة في فهم النص أو إنتاجه، في نظر منها مركَّز إلى الهامش و العرضيّ و اليوميّ و الشعبيّ (سبيلا، بنعبد العالي، ٢٠٠٧: ص١٠). و هذا ما يقود إلى خلود النص؛ ذلك بأنَّ النص بطبيعة الحال لا يفرض معنىً بعينه على القرَّاء المختلفين، بل يوحي مجموعة من الدلالات التي يراها القرَّاء المختلفون (مصطفى، ٢٠١٢: ص١٠٠-١٠٢). مع لحاظ أنَّ هذا يستصحب توسُّعًا هائلًا حدث في مجالات النص و الخطاب و مصاديقهما الواقعيَّة، ما لا مجال معه لحصرهما في المكتوب أو الشفاهيّ أو المرئيّ.

وعلى الرغم من التباين الواضح بين التقنيات الأسلوبيَّة التحليليَّة، و التقنيَّات التداوليَّة التكوينيَّة و التحليليَّة في آن، فإنَّ هذا التباين ينحسر عند إنتاج مقاربة نصيَّة تحليليَّة تتوخَّى البعدين الأسلوبيّ و التداوليّ الناظرين إلى النص بلحاظ من أنَّه إنتاج للمعنى على نحو من التواصليَّة التأثيريَّة بين المتكلِّم و السامع بمعونة السياق و آفاقه التكوينيَّة، وصولًا إلى النفعيَّة اللسانيَّة التي لا تنفصل عن الخطاب الأسلوبيَّ الاختياريّ ذي الآفاق النفعيَّة التداوليَّة. و هذا يأتي ليحقِّق دراسة تواصليَّة للمعنى تتَّخذ من عناصر الخطاب اللسانيّ حقلًا جمعيًّا تكامليًّا يتحرَّك في المنطقة اللسانيَّة بين المتكلِّم بفعله الكلاميّ، و السامع بفعله الافتراضيّ، مرورًا بمعطيات السياق كلِّها. و في سياق النص و الخطاب غير اللسانيين يكون النظر التحليليّ أكثر استعدادًا لتوسيع مساحة المتلقّي و أثره في إنتاج المعنى بلحاظه السيميائيّ و التداوليّ.

و تأتي في هذا المضمار النظرات اللسانيَّة التداوليَّة لتكسب التحليل اللسانيّ الدلاليّ توسُّعًا مهمًّا؛ فتتحوَّل بتقنيَّات التحليل اللسانيّ الدلاليّ من محدودية المثلَّث الدلاليّ المقتصر على الدالّ و المدلول و الفكرة إلى رباعيَّة المنظومة الدلالية التحليليَّة التي تضيف إلى عناصر التحليل الدلاليّ الثلاثيّ عنصر الواقع اللسانيّ النفعيّ (ساندیرس، ٢٠٠٣: ص٢٠٥)، الذي يكون بطبيعة الحال ((أساسًا موضوعيًّا لأيّ نصٍّ)) (فرج، ٢٠٠٧: ص١٧). و من هنا يقود هذا التوسُّع التحليليّ الدلاليّ إلى التعاطي مع المنظومة اللسانيَّة الخطابيَّة المحلَّلة بلحاظ إقناعها و إمتاعها من جهة، و تأثيريَّتها و إدهاشها السامع من جهة ثانية. على أن يأتي ذلك كلُّه في ضوء من التقنيَّات التي يتطلَّبها السياق الاجتماعيّ المتضمِّن إلى جنبه آفاقًا مناسبة من السياق الثقافيّ بأنساقه المتنوِّعة.

و هذا النظر التحليليّ يجعل المحلِّل اللسانيّ الدلاليّ متعاطيًا مع "علم الإشارات" من خلال تقنيَّات التحليل التركيبيّ، و الدلاليّ، و النفعيّ؛ منتهيًا إلى صوغ ذلك على نحو من العلائق التبادليَّة بين المنتفعين بالنص متكلِّمًا و متلقيًا من خلال العلائق الدلاليَّة الرمزيَّة بين الإشارات اللفظيَّة و دلالاتها (ساندیرس، ٢٠٠٣: ص٢٠٤).

يأتي ذلك في إطار النصيَّة التي تتخطَّى إلى المعرفة المصاحبة المؤثِّرة في التكوين اللسانيّ للنص غير المنفصلة عن تكوين معرفة بالعالم (فرج، ٢٠٠٧: ص١٦) على نحو ما. بمعنى أنَّنا أمام تحليل تكامليّ للمنظومة الدلاليَّة الموسَّعة التي تنتظم في أنساق

لفظيَّة ذات إيحاء دلاليّ لا يظهر من دون تفكيك هذه العلائق تارة، و تجميعها تارة أخرى؛ لتتوافر عناصر العمليَّة الكلاميَّة المقاليَّة و المقاميَّة محقّقة الحضور الدلاليّ كما يريده المتكلّم من جهة، و كما يريده المتلقيّ من جهة أخرى على نحو لا يخلق تعارضًا بين هذا و ذاك؛ من طريق اعتماد مهارات تحليليَّة إيحائيَّة معيَّنة.

أمَّا مسألة المقاربة التحليليَّة اللسانيَّة الأسلوبيَّة فهي تتواجد في منطقة التحليل اللسانيّ التكامليّ الذي اقتضاه "علم الإشارات" المستوعب للقيم الدلاليَّة العرفيَّة و الرمزيَّة؛ ذلك بأنَّ ((الدراسة الحقيقيَّة للأسلوب اللغويّ تدخل ضمن مهام اللسانيَّات النفعيَّة التي تتساءل و باستمرار ... عن النظام اللغويّ و الأداء اللغويّ لتصل إلى المتكلّم / المستمع من جهة، و إلى النصوص الحقيقيَّة (المنطوقة و المكتوبة) من جهة ثانية مع مراعاة العوامل غير اللغويَّة)) (ساندیرس، ٢٠٠٣: ص٢٠٩)، في تحليل الخطاب اللسانيّ و إنتاج النص الذي ((يخدم أهدافًا اجتماعيَّة، و يكون ذلك مرتبطًا ـ غالبًا ـ بسياقات نشاط معقّدة)) (شبل، ٢٠٠٩: ص٤٩)، تتَّصل بالخطاب بلحاظه اللسانيّ و لحاظه المقاميّ.

و على الرغم من ((تباين أهداف كلٍّ من النظريَّة الأسلوبيَّة و اللسانيَّات النفعيَّة؛ لأنَّ النفعيَّة اللغويَّة تتناول كلَّ ما يخصُّ الأداء اللغويّ من منظور وظيفته الاتصاليَّة، على حين لا تشتمل النظريَّة الأسلوبيَّة من هذا الأداء إلَّا على الجزء الذي يميِّز الصيغ و التعابير اللغويَّة المنتقاة بشكل شخصيّ ذاتيّ تمييزًا أسلوبيًّا)) (ساندیرس، ٢٠٠٣: ص٢١١)؛ فإنَّ هذا التبيان بينهما ينحسر نوعًا ما عندما تكون الخاصَّة الأسلوبيَّة ((أساسًا تابعًا للسانيَّات النفعيَّة ذات الصلة الوثيقة باللسانيَّات النفسيَّة و الاجتماعيَّة)) (ساندیرس، ٢٠٠٣: ص٢١١). و هذا ما يمهِّد إلى التعاطي في ضوء الأسلوبيَّة النفعيَّة التي تضع الأسلوب في إطار النفع اللسانيّ المجتمعيّ الذي يخلق التفاعليَّة المطلوبة، و يمثِّل ((تحقيقًا لقصد المتكلّم، و يخدم دائمًا تلبية حاجات الاتصال)) (شبل، ٢٠٠٩: ص٥٩). بمعنى أنَّها تتمظهر في تصوُّرات نفعيَّة (ساندیرس، ٢٠٠٣: ص٢١٢-٢١٧) واضحة، لا تنفصل بطبيعة الحال عن روح العمليَّة اللسانيَّة و آفاقها الإشاريَّة التي تتداخل مع أجواء السياق بلحاظ تنوُّع عناصره، و حتميَّة الوقوف على هذه العناصر عندما يشتغل المحلِّل اللسانيّ على إنتاج طائفة متماهية من المقولات الدلاليَّة التي يريد لها أن تتقدَّم بمشروعها الدلاليّ المجتمعيّ و قد حقّقت نوعًا من الإقناع، و تطلَّعت إلى نوع من التأثير، و كأنَّها تتقمَّص ما يريد تحقيقه المتكلّم؛ فتُبنى على أسس تحليليَّة هي بالضرورة أسس البناء الكلاميّ التي يحرص المتكلّم على أن يضعها هدفًا يسعى إلى الوصول إليه.

و التداوليَّة (Pragmatics) أو البراغماتيَّة يعبَّر عنها أيضا بالتبادليَّة، و الاتصاليَّة، و النفعيَّة، و الذرائعيَّة، و المقصديَّة، و المقاميَّة (الرويلي، البلاغي، ٢٠٠٠: ص١٠٠). و يعود تطوُّر البحث التداوليّ إلى طائفة من العلماء الفلاسفة / اللسانيين هم كلٌّ من (أوستن Austin، و سيرل Searle، و جرايسGrice) (أرمينكو، ٢٠٠٢: ص١٣).إذ ((تجمع بين هؤلاء الفلاسفة مسلَّمة عامَّة مشتركة، مفادها أنَّ فهم الإنسان لذاته و لعالمه يرتكز في المقام الأوَّل على اللغة)) (صحراوي، ٢٠٠٥: ص٢١)؛ ذلك بأنَّ ((جميع الحالات الموضوعيَّة لشؤوننا، و جميع العلاقات الذاتيَّة مع الأفراد و المجتمع، و مع تأريخ الجنس البشريّ، قائم على أساس لغويّ إن أراد أن يكون له معنى)) (بوبنر، ١٩٩٧: ص٨١).

و تقوم اللسانيَّات التداوليَّة بدراسة المعنى دراسة تواصليَّة من خلال بيان طرائق المتكلّم في توصيل المعنى باعتماد الإمكانات الخطابيَّة و التأثيريَّة التي تتمتَّع بها المنظومة اللسانيَّة؛ لغرض إحداث حالة من التجاوز الدلاليّ، و عدم الاقتصار على المعنى الملتصق بما قاله المتكلّم (الشهري، ٢٠٠٤: ص٢٢)، بل إنتاج علاقات تأويليَّة بين المتكلّم و

العلامات اللسانيَّة من طريق العلاقات التأويليَّة؛ وصولًا إلى تحليل ذهنيّ للنشاط الكلاميّ (راموس، ٢٠١٤: ص٢٩)، يلحظ آفاق الحدث الكلاميّ و مجاوراته الفاعلة.

و هذا يجعل التداوليَّة درسًا في المعنى يقوم على أساس من العلائقيَّة التبادليَّة التواصليَّة بين الظهورات اللفظيَّة و المتكلّم و السامع، يقود إلى أنَّ ذلك كلّه يأتي في سياق منَّسق؛ وصولًا إلى الوقوف على المعنى بلحاظ المتكلّم (نحلة، ١٩٨٦: ص٦-١٤) و السامع، على نحو يحقّق التوازن بين مرجعيَّاتهما؛ فتأتي المقولة الدلاليَّة مقولة متوازنة موسَّعة ذات مرجعيَّات ثقافيَّة لا تبتعد كثيرًا عن مرجعيَّات النص اللسانيّ، بل تنطلق من حيثياتها المكوّنة. و هذا وحده يجعل من ((قضيَّة التداوليَّة هي إيجاد القوانين الكلّيَّة للاستعمال اللغويّ و التعرُّف على القدرات الإنسانيَّة للتواصل اللغويّ، و تصير التداوليَّة ... علم الاستعمال اللغويّ)) (صحراوي،٢٠٠٥: ص١٦-١٧). و لعلَّها "علم الاستعمال اللغويّ العام"، الذي ينفتح على جميع العناصر الفاعلة في إنتاج الفعل الكلاميّ القصديّ بلحاظه اللسانيّ و غير اللسانيّ. معنى هذا أنَّ التحليل التداوليّ ينحاز إلى منطقة المعنى لحظة تحرُّرها من قيود المعياريَّة و مظاهرها.

و تعتمد الدراسة التداوليَّة جملة من "القوانين الخطابيَّة الضمنيَّة"، و مبدأ "الاستلزام الحواريّ" بين المتكلّم و المخاطب، و "قصديَّة" المتكلّم في الإنجاز و التأثير اللذين يعتمدان التوظيف اللغويّ (روبول. موشلار، ٢٠٠٣: ص٥٣-٥٧). و هذا ما يجعل التحليل اللسانيّ التداوليّ تحليلًا لمقاصد المتكلّم في ضوء المعاني المضمَّنة في الخطاب الكلاميّ من جهة، و في ضوء استحضار المفاصل المسكوت عنها في الحوار من جهة أخرى؛ وصولًا إلى قصديَّة الفعل الكلاميّ، و ((اعتماد التقابل بين نظام اللغة و استعمال اللغة، أو عملها)) (الشاوش، ٢٠٠١: ص٩٣/١). بمعنى أنَّها تنصرف إلى دراسة الخطاب المستعمل و تكريسه؛ لتتوافر على القصد الكلاميّ، و المعنى التداوليّ، و الإشاريَّات (الشهري، ٢٠٠٤: ص٢٤) اللسانيَّة المنفتحة على أجواء الحدث الكلاميّ.

٢- "الطَّوفان" و التشخيص بين الأسلوب و الصورة:

يظلُّ حدث "الطُّوفان" في زمن النبيّ نوح عليه السلام من الأحداث الكونيَّة التي تستلزم تحليلًا متنوّعًا حتَّى يكون التوصُّل إلى فهم متكامل لهذا الحدث العالميّ. و قد تضمَّن الخطاب القرآنيّ نصوصًا تحكي هذا الحدث و ما رافقه بلحاظ الكيفيَّة و الأهداف، و ما بينهما من تفاعل و تماسك؛ ممَّا خلق خطابًا طوفانيًّا موحَّدًا لا يمكن تجزئته أثناء ممارسة فعل القراءة و التحليل؛ فقد استثمر الخطاب القرآنيّ هذا الحدث من جميع جوانبه الكونيَّة، و الطبيعيَّة، و الإنسانيَّة، فضلًا عن الجوانب الفكريَّة، و الآثار العقديَّة.

يذكر الخطاب القرآنيّ "طُوفان" نوح عليه السلام في قوله تعالى: { وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَ هُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَ أَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَ جَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ } (العنكبوت: ١٤-١٥). و يذكره في قوله تعالى: { وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحْيِنَا وَ لَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّمَا مَرَّ عَلَيهِ مَلَأٌ مِن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ } (هود: ٣٧-٣٩). و مفهوم "الطُّوفان" يستعمل في هذا السياق للدلالة على ((الماء المتناهي في الكثرة)) (الأصفهاني، ١٩٩٦: ص٥٣٢) إلى الحدّ ((الذي يغشى كلَّ مكان)) (ابن منظور، ٢٠١٠: ج٥، ص٤٨٦). مع لحاظ الدلالة المخصوصة على المطر الغالب، و السيل المغرق، و الموت الجارف، و القتل الذريع (الفيروز آبادي،٢٠٠٩: ص٨١٨). و من المعروف أنَّ اللفظ منتقل من الدلالة على كلّ حادثة تحيط بالإنسان و الجماعة (الأصفهاني،

١٩٩٦: ص٥٣٢) على نحو من البلاء و الموت. و من الإحاطة أيضًا دلالته على شدَّة سواد الليل (ابن منظور، ٢٠١٠: ج٥، ص٤٨٧).

يمثِّل هذا الحدث إشكاليَّة طبيعيَّة من جهة، و إشكاليَّة فكريَّة من جهة ثانية؛ بما يكتنف هذا الحدث الإلهيّ العجيب من عناصر، و تداعيات، و غايات. فإنَّ عناصره تتمركز فيها الجوانب العلميَّة، و تداعياته يوجِّهها إفراغ الأرض من مظاهر الحياة من خلال عنصر الحياة "الماء"، و غاياته يحكمها تطهير الأرض، و إهلاك العصاة المردة.

و اللافت أنَّ هذه المنظومة العلميَّة التربويَّة تأتي متساوقة و مترابطة يقودها نبي الله عليه السلام فلا يترك جزءًا من الجزئيَّات التي ترافق هذا الحدث من دون أن يوظِّف توظيفًا رائدًا يصنع الحياة كما ينبغي لقادة الصلاح و الإصلاح.

يربط مشهد "الطُّوفان" بين السماء و الأرض بلحاظ الغاية، و ضرورة تحقُّق بناء الذات الإنسانيَّة بناءً أكمليًّا يرقى لحقيقة الوجود، و استثمار قوَّة العقل من خلال صوغ عناصر الكون صوغًا حركيًّا يتماهى مع حركيَّة الحياة في إطار منظومة الفناء الذي لا مفرَّ منه. و هذا ما جعل فكرة هذا البحث تتحرَّك مع "الطُّوفان" من نهايته و بعد ذلك ترتدُّ إلى بدايته؛ فترسم خريطته الفكريَّة في ضوء من الحراك التداوليّ الاستباقيّ الناظر في نهايات المشهد الطُّوفانيّ قبل بداياته.

و يخبر الخالق العظيم بنهاية "الطُّوفان" من خلال قوله في سياق سورة هود المباركة: { وَ قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَ يَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } (هود: ٤٤). هذه الآية المباركة و لا سيما القول المذكور فيها الذي عُبِّر عنه بالوحدة الدلالية "قِيلَ" جاءت في إرادة توقُّف الطُّوفان و انتهائه في متوالية أسلوبيَّة شخَّصت العناصر الكونيَّة، و اشتغلت عليها على نحو منتظم من "الأرض" إلى "السماء". أو لنقل من "الغايات" إلى مصدر تحقُّقها في تراتبيَّة متعاقبة هادئة حاسمة في آن.

يربط هذا المشهد الطُّوفانيّ المتوقّف بين "الأرض" و "السماء" كما ربط المشهد الطُّوفانيّ المنطلق بينهما، فقد وصل الأرض بالسماء في تلاقي الماء النازل من السماء بالصاعد من الأرض. صعود الحياة الأرضيَّة المتمثِّلة بمن في السفينة إلى السماء، وتوقُّفها على مكان أرضي عال. و اتصال الأرض بالسماء عن طريق النبيّ نوح عليه السلام الذي أنذر بالطُّوفان، فهو الناقل لإرادة السماء إلى الأرض. و تطهير الأرض بالطُّوفان، إذ يمثِّل الطُّوفان تطهيرًا للأرض من كلِّ الكافرين العاصين الذين كانوا على الأرض، و بذلك تكون الأرض طاهرة كما السماء. مع لحاظ توحُّد الأرض و السماء بلون واحد، إذ يضفي الطُّوفان (الماء) الذي لا تنعكس فيه إلَّا صورة السماء، فكأنَّه هو في لونها وكأنَّها هي في لونه.

أمَّا مشهد التوقُّف فإنَّ اتصال الأرض والسماء فيه يتمثَّل في القول الكثير الذي ملأ الأرض و السماء، و كأنَّه ينزل إلى الأرض دفعات متتالية قويَّة، فقد تكرَّر الدليل اللفظيّ الفعليّ (قِيلَ) المحذوف الفاعل، و الدالُّ حذفه على تكثير القول و شموله، و سعة انتشاره. فضلًا عن تشخيص الأرض و السماء (الزيدي، ١٩٨٠: ص٤٦٠)، و اشتراكهما بخطاب واحد، و بقول واحد و كأنَّهما متقاربان، فإنَّ سماع السماء لهذا النداء جاء مساويًا لوقت سماع الأرض له، فقد أسمع السماء، و أسمع الأرض في وقت واحد. و هذا مرتبط بما مرَّ من دلالة للدليل اللفظي (قِيلَ) على التكثير في القول (العارضي، ٢٠١٨: ص٥٧).

و كذلك تأتي الدلالة على العظمة بنداء الأرض و السماء (الجرجاني، ٢٠٠٧: ص٩٤)، و الإشارة إلى تقاربهما من خلال استعمال الدليل اللفظيّ (ابْلَعِي) للأرض، و الدليل اللفظيّ (أَقْلِعِي) للسماء، فجانس بين الفعلين (الزمخشري، ١٩٨٨: ص٢/٢٧٢)، و قارب بينهما؛ فقارب بين الأرض والسماء إلى حدّ التوحُّد. على الرغم من أنَّ لكلِّ واحد من

الدليلين دلالته المخصوصة.

هكذا تتضافر عناصر المشهد الطُّوفانيّ الفريد: الماء، السماء، الأرض، الإنسان، السفينة، النبات، الحيوان؛ فتشترك هذه العناصر كلُّها في إنتاجه. و اللافت أنَّ العناصر هذه تضافرت في فصول هذا المشهد كلِّها أيضًا؛ فأنتجت مشهدًا حركيًّا يركّز على مظاهر الحياة و ضرورة إدامتها و الحفاظ عليها.

و من التداعيات الحياتيَّة المهيمنة على هذا المشهد الفريد أنَّ العنصر الوحيد المستغرق في حالة الجماد، و هو السفينة قد اكتسب أفقًا رمزيًّا أيضًا؛ إذ يرمز إلى النقاء، و العلم، و التغيير، و التعايش، و مظاهر المجتمع في حالاته المتنوِّعة. مع لحاظ أنَّ هذا المجتمع ينتقل من حالة حياتيَّة إلى حالة أخرى لها برنامجها و نظامها الجديد، المرتبط بضرورة وجود القائد النوعيّ المختلف.

و لمَّا كان "الطُّوفان" مشهدًا تتجلَّى فيه وظيفة الصورة و سيميائيَّتها المتحرِّكة ذات التحولات الإيحائية وجد فكر ما بعد الحداثة في هذا المشهد مادَّة مهمَّة للنظر و التحليل في ضوء فلسفته المستغرقة في سيميائيَّة الصورة من جهة، و الباحثة عن مظاهر زعزعة المركز و مركزة الهامش، و رفض النسقيَّة و تفتيتها من جهة ثانية؛ لإنتاج مقاربات تقوم على ثنائيَّات الفناء و حبِّ الحياة، و الإله و الإنسان، و ما أحدثته الثورة الطُّوفانيَّة في زمن النبيّ نوح عليه السلام من إشارة يرى فيها مفكِّرو فلسفة ما بعد الحداثة أنَّها تتعاطى مع الروح البشريَّة في ضوء عدم فائدتها، و تؤسِّس لإمكان إعادة الهلاك الأبديّ أو الكلّيّ في أجيال لاحقة (طحَّان، ٢٠١٤: ص٨). و لعلَّ فكرة إعادة الهلاك التي ينظر إليها فكر ما بعد الحداثة في ضوء منظومة "الطُّوفان" و أحداثها القبليَّة و البعديَّة قد جعلت الغرب يتوقَّعون وقوع الكوارث الطبيعيَّة؛ و من ثمَّ صاروا أكثر استعدادًا للوقاية منها، بما لديهم من إجراءات احترازيَّة نوعيَّة. معنى هذا أنَّ توظيفًا مهمًّا قد كان لواقعة "الطُّوفان" على المستوى المجتمعيّ و الوقائيّ، مع عدم غياب لما ينتجه من آثار عقديَّة تتَّصل بقوى الغيب و إراداتها و قواها الخارقة.

و تتحتَّم في هذا السياق ملاحظ مهمَّة هي أنَّ هذه الثنائيَّات التي اشتغل عليها ما بعد الحداثيين يمكن لحاظ توافقها، و تقليل عناصر الصراع التي تحكمها من خلال النظر في أنَّ الهلاك الذي أنتجه "الطُّوفان" هو هلاك إيجابيّ، تستعيد به الحياة الأرضيَّة نقاءها و صفاءها و انطلاقها من جديد في فضاء من التفاؤل و الرغبة في عمار الأرض و إعادة إنتاج الحياة على نحو من العدل المجتمعيّ جديد.

٣- " الطُّوفان " بين دوالِّ الحركة و دوالِّ الثبات:

بعد هذه الموازنة بين "الطُّوفان" في ذروته و "الطُّوفان" في توقُّفه من جهة علاقتهما أو ارتباطهما بالسماء و الأرض، نجد تشابهًا بين ذروة "الطُّوفان" و توقُّفه، و لكن من جهة أخرى. تلك هي أنَّ ثورة "الطُّوفان" تتحرَّك أو تنتقل من الحركة إلى الثبات، كما يتمثَّل ذلك في الدوالِّ المشكِّلة للإخبار عن بدئه، إذ يقول تعالى: { حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ } (هود: ٤٠)، فقد كانت المباني الدالَّة على الحركة في هذه الآية المباركة (٧ مبان) هي: جَاءَ / فَارَ / قُلْنَا / احْمِلْ / سَبَقَ / آمَنَ. أمَّا مباني الثبات فكانت (١٠ مبان) هي: أَمْرُنَا / التَّنُّور / كُلّ / زَوْجَين / اثنَين / أَهْلَكَ / مَنْ / القول / مَنْ / قَلِيل. و هذا يعني أنَّ الحركة تمثِّل بداية الطُّوفان و انطلاقته، في حين يُمثِّل الثبات بلوغ الطُّوفان غايته، فإنَّ مجرَّد الأمر (الحركة) بالطُّوفان يؤدِّي إلى تمكُّن (الثبات) الماء من الأرض كلِّها و تغطيتها جميعًا. و تجدر الإشارة في هذا السياق إلى أنَّ ثمَّة اختلاف بين الباحثين في علم الأرض حول مكان

الطُّوفان و سعة انتشاره، فمنهم من قال بمحليَّته و منهم قال بعالميَّته. و الخطاب القرآنيّ لا يقول إلا بعالميَّة الطُّوفان (مرزة، ١٩٩٥: ص٩٧-١٢١).

و نجد مثل هذا في ذكر "الطُّوفان" في سورة القمر المباركة، و ذلك في قوله تعالى: { فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَ حَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَ دُسُرٍ } (القمر: ١١-١٣)، فكان ما يدلُّ على الحركة (٥ دوالٍّ)، هي: فَتَحْنَا / فَجَّرْنَا / الْتَقَى / قُدِرَ / حَمَلْنَاه. أمَّا دوالُّ الثبات فكانت (١١ دالًّا) هي: أَبْوَاب / السَّمَاء / مَاء / مُنْهَمِر / الأَرْض / عُيُونا / المَاء / أَمْر / ذَات / أَلْوَاح / دُسُر. في حين كان الإخبار عن توقُّف " الطُّوفان " أو انتهائه تساوي فيه الحركة الثبات ، فقد كانت دوالُّ الحركة: قِيلَ / ابْلَعِي / أَقْلِعِي / غِيضَ / قُضِيَ / اسْتَوَت / قِيلَ / بُعْدًا. أمَّا دوالُّ الثبات فتمثَّلت في: أَرْض / مَاء / سَمَاء / المَاء / الأَمْر / الجُودِي / القوم / الظَّالِمِينَ. فإنَّ الغرض من الحركة هنا هو توقُّف الماء و انتهاء تفجُّره و جريانه، فجاءت الحركة مساوية للثبات في تناسب أسلوبيّ رفيع الأثر. و قد أدَّى الحذف الوظيفة الرئيسة في جعل المتحرِّكات تساوي الثوابت في هذا السياق، فقد حذف الاسم / الفاعل في (٤ مرَّات) هي التي تحكَّمت بالوصول إلى هذه المساواة، و لولا الحذف لصار الثابت أكثر (١٢ مرَّة) و المتحرِّك (٨ مرَّات) . و هذا لا يتناسب بطبيعة الحال مع الهدف الذي من أجله جاءت الحركة، فهي قد جاءت لتضع حدًّا للطُّوفان و لتعلن توقُّفه. و يحقِّق تساوي الحركة و الثبات دلالة على الحركة السريعة التي استطاعت أن تعمل على إيقاف "الطُّوفان"، فإنَّ القول بالتوقُّف ما أن صدر حتَّى انتهى "الطُّوفان" (العارضي، ٢٠١٨: ص٢٣٣-٢٣٤).

و اللافت في هذا السياق أنَّ الثبات يقابل "الطُّوفان" في ثورته و في توقُّفه على السواء، في إشارة إلى أنَّ "الطُّوفان" قد غطَّى الأرض كلَّها و ثبت عليها؛ لينتهي تحرُّكه و يبدأ بالزوال. و هذا ينسجم بطبيعة الحال مع إيقاع التفجير على الأرض و هو للعيون؛ للدلالة على الشمول و تحوُّل الأرض كلَّها إلى عيون يفور منها الماء و يتبجَّس من أنحائها كلِّها (الجرجاني، ٢٠٠٧: ص١٤٠).

و على الرغم من تساوي حركة البداية و حركة النهاية فإنَّ فارقًا يمكن أن يلحظ بين الحركتين يتولَّى الإفصاح عنه كلٌّ من ((ابْلَعِي / أَقْلِعِي ، قُلْنَا)) إذ تنطلق من وسط التوقُّف فينخفض الدليلان (ابْلَعِي/ أَقْلِعِي) ليعلنا انتهاء "الطُّوفان" و تدرُّج السفينة نزولًا نحو الأرض إلى أن تستوي على الجوديّ، و يرتفع الآخر (قُلْنَا) قبله ناشدًا الثبات بعد أن يتمكَّن الماء من الأرض كلِّها، و من الجبال أعلاها، و لا سيما تلك التي يظنُّ من لم يؤمن أنَّ الماء لن يطولها. و لا يخفى أنَّني أشير من خلال ذكر هذا الجبل و ظنِّ النجاة باللجوء إليه إلى ما بادر به ابن نوح الذي هلك. يقول تعالى: { وَ نَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَ كَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَ لَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ } (هود: ٤٢-٤٣).

الملاحظ أنَّ مشهد "الطُّوفان" يحدث في سياق حركيّ سريع، فإنَّ كلَّ ما في هذا المشهد سريع خاطف حتَّى الكلام؛ فقد جاء - خصوصًا في مشهد الانقضاء - سريعًا قصير الفقرات، قصير الكلمات الحاضرة ، كثير الكلمات الغائبة التي يدلُّ غيابها على السرعة الشديدة كما في (غِيضَ / قُضِيَ).

و دلالة الحذف مع هذين الفعلين تأتي مرتبطة بدلالتهما اللفظية؛ إذ يدلَّان على المقدرة (العسكري، ١٩٨٦: ص١٧٦) المتعالية، مع ((إخبار عن ذهاب الماء بأوجز ممَّا فجَّرت ... و هذا إخبار عن اقشاع السحب و انقطاع المطر في أسرع زمان ... ((وَقُضِيَ الْأَمْرُ)) أي وقع إهلاك الكفَّار على التمام)) (السيوطي، ١٩٨٤: ص٣٠٧/١). و ما يدلُّ على السرعة أيضًا أنَّ الأحداث على الرغم من كثرتها، و اختلاف متعلَّقاتها، فإنَّها جاءت و كأنَّها حدث واحد كان له وقت واحد، فجاءت من دون أن تكون هنالك فترة أو انقطاع فيما بينهما؛ إذ يحكمها حسن النسق الذي يدلُّ عليه العطف بالواو (السيوطي، ١٩٨٤:

ص١/٣٠٧).

و لعلّ هذا يدعو إلى أن يُقال إنّ "الحذف" من بين أهم المظاهر التواصليّة التي تنسجم مع مرادات التحليل التداوليّ؛ ذلك بأنّه يقيم شراكة تواصليّة بين المتكلّم و السامع، من خلال الحثّ على البحث عن المكنونات الضمنيّة و مستلزم الحوار، و صياغة ذلك صوغًا قصديًّا إنجازيًّا بلحاظ المتكلّم، و صوغًا تأثيريًّا بلحاظ السامع أو المحلّل اللسانيّ الذي يعتمد منهاجيّة في التحليل تستوعب الحدث اللسانيّ بلحاظ اندماجه بالحدث المجتمعيّ. و عند ذلك يكون هذا المحلّل محلّلًا تداوليًّا يفوق في مبتغاه التحليليّ النظر اللسانيّ المنطقيّ؛ فيقدّم حلًّا تداوليًّا لشبكة المعنى التواصليّ باعتماد المنظومة المعارفيّة السياقيّة الموسّعة.

٤- "الطّوفان" بين الزمن الطبيعيّ و الزمن الأسلوبيّ:

على الرغم من أنّه يذكر أنّ انبعاث ماء "الطُّوفان" من الأرض و من السماء كان لأربعين يومًا، و أنّ سفينة نوح عليه السلام ظلّت على الماء مئة و خمسين يومًا بعد توقُّف "الطُّوفان" الذي غطّى الأرض مدّة سنة، و أنّ نوحًا عليه السلام قد كان نزوله من السفينة بعد أربعين يومًا من استوائها (الكتاب المقدّس، التكوين، الإصحاح السابع، الإصحاح الثامن). بمعنى أنّ الطُّوفان قد استمرّ عددًا من الأشهر (العمادي، ١٩٩٩: ص٣/٣١٧). فإنّني أحسب أنّ الغرض من الطُّوفان تحقّق بإغراق من غرق؛ ما لا حاجة معه لهذه الأشهر، و إن كان في هذه الأشهر ما يدلُّ على عظيم صنعه تعالى في حفظ الحياة على ظهر سفينة.

أمّا (الزمن الأسلوبيّ) الفاصل بين بدء "الطُّوفان" إلى توقُّفه في ضوء الخطاب القرآنيّ فإنّه زمن حركيّ متقاصر جدًّا ينتهي إلى الثبات الذي يمثّل الغاية من "الطُّوفان" و الهدف الأسمى له، و هذا ما يتّضح في قوله تعالى: { وَ قَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ } (هود: ٤١-٤٣). يبدأ هذا الفاصل متحرّكًا، و ذلك بقوله ((قَالَ ارْكَبُوا)). و تتحرّك الحركة و كأنّها تدفع الثبوت أمامها و تحرّكه، فجاءت المتحرّكات / الأفعال متبوعة بثوابت، متوزّعة في الوسط توزُّعًا يكاد يكون منتظمًا، إذ يدفع أو يحرّك كلُّ فعل أمامه اسمًا أو اسمين، خلا فعل القول و كأنّه قادر على تحريك عدد أكبر من الثوابت، و هذا ليس منكرًا عليه و هو الفعل الذي يترتّب عليه انتهاء "الطُّوفان"، فقد جاء في آية الانتهاء (مرّتين)، و هو الذي بدأ به "الطُّوفان" أيضًا من خلال فعل الدعاء. و ذلك في قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: { فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ } (القمر: ١٠)، فيحمل هذا الفعل خاصّة توظيفيّة تسجّل له في هذا المقام يعزّزها بمقدرته على تحريك غير واحد من الأسماء.

وما أن نصل إلى نهاية هذا المشهد التصويريّ حتّى نصل إلى الثبات النهائيّ و نصل إلى بداية النهاية لهذا "الطُّوفان"، فإنّه قد وصل إلى مبتغاه، فأغرق الكافرين و منهم ابن نوح، فجاء التعبير في نهاية هذا الفصل عن ذلك الغرق بما يدلُّ على الثبوت أي بالاسم، أو بالجملة الفعليّة / الاسميّة متمثّلة بقوله تعالى ((فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ)). لقد كان الغرق ثابتًا منهيًا للحياة و جاء دليله ثابتًا أيضًا، و كان في الوقت الذي بلغ فيه "الطُّوفان" ثبوته الصاعد و بدأ فيه ثبوته النازل، و كأنّ "الطُّوفان" لم يدم إلّا بمقدار المدّة التي نادى فيها نوح عليه السلام ابنه و ردّ عليه بأنّه سيأوي إلى الجبل طلبًا للنجاة فبادره نوح عليه السلام مسرعًا أنّ ذلك لن ينفع و رحمة الله بعيد. لقد كان هذا الجبل موضع آخر حيّ على الأرض قبل بلوغ "الطُّوفان" ذروته و هيمنته. و شاءت إرادة السماء أن يكون الجبل أيضًا مهد أول إنسان يطأ الأرض بعد "الطُّوفان"، مع لحاظ أنّ قبليّة "الطُّوفان" و بعديّته لا ينبغي أن ينظر

إليها بلحاظها الطبيعي، بل هي ذات لحاظ زمني خارق إلى حدٍّ تتلاشى معه المدَّة الفاصلة بينهما؛ ذلك بأنَّ حسابات الزمن كلّها قد تعطّلت ، إذ حدث بسرعة لا مجال معها للقبل و البعد.

و بعد فإنّني لا استبعد أن يكون مكان مجرى السفينة هو نفسه مكان مرساها. بمعنى أنَّ الجري لم يكن جريًا أفقيًّا بل كان جريًا عموديًّا تصاعديًّا. بمعنى أنّه كان طفوًّا يتناسب مع الحركة الصاعدة الوحيدة التي وجدناها في آية بدء "الطُّوفان". و لعلَّ في الدلالة على الطفو قربًا؛ ذلك بأنّه استعمل في هذا السياق ((تَجْري)) للدلالة على أنّه ((مرٌّ سريع)) (الطوسي، ٢٠٠٤: ص٤٨٩/٥). و يلوح لي أنَّ هذه الحركة الوحيدة كانت وحيدة رمزًا للسفينة، ولا يبتعد هذا عن المقابلة بين المغرقين من جهة، ولا يبتعد أيضًا عن صعود السفينة الذي وقفنا عنده في موقف "الطُّوفان" من السماء و الأرض، وكيف أنّه يصعد بالحياة فيدنيها لمصدرها السماء كي تنال من بركتها و نقائها و قوَّتها؟ و ما أذهب إليه في ((الْجُودِيِّ)) بوصفه مكانًا للنهاية الطوفانيَّة فضلًا عن بداية تلك الطوفانيَّة قد يتساوق مع عدم اتفاق المقولات التفسيريَّة على جبل بعينه هنا؛ ففيه أقوال تجعله جبلًا في الموصل، أو الشام، أو طبرستان (العمادي، ١٩٩٩: ص٣١٧/٣).

و في هذا أفق تحليليّ آخر يتَّجه إلى ابن نوح، فيمكن أن يُقال إنَّه ما أخطأ عندما كان هذا الجبل محطَّ أنظاره و هو يطلب النجدة، فكأنَّ في هذا الجبل ما يستشعر معه أنَّ فيه ما يرمز إلى الحياة، أو أنَّ فيه ما يقود إلى هذه الرمزيَّة، و إلى هذا الإحساس.

و بعيدًا عن هذه الإيحاءات فإنَّ الله تعالى أبكت هذا الابن و ردَّ كيده عندما جعل هذا الجبل نفسه محطَّة نجاة، و لكنَّها ليست له بل لمن سخر منهم و هم في السفينة المباركة. و إذا لم يكن جبل الاستواء هو جبل ابن نوح فهو جبل قريب منه لا يبتعد عن مكان عمل السفينة. و هذا ما يتساوق مع ما مرَّ من تحليل تكامليّ نصيّ استوعب الظهورات اللسانيَّة بآفاقها الأسلوبيَّة و حيثيَّاتها التداوليَّة المجاورة.

و إذا كانت مقولات الحذف التي قيلت في قوله تعالى ((وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ)) مقولات تستغرق في الجانب الشكليّ، و قد تكون غير مقنعة في بابها و لا تسعف في الدلالة على ما نظنُّه في كون الجبل الذي استوت عليه السفينة هو الجبل نفسه الذي حاول ابن نوح الاحتماء به من الماء، أو أنّه جبل قريب منه، فإنَّ في قول من قال إنَّ ((الجوديّ اسم لكلِّ جبل و أرض صلبة)) (جبل، ٢٠١٢: ص٢٨٩/١) ما يكفي للدلالة على ذلك، فضلًا عن أنَّ "الطُّوفان" قد كان في انقضائه و بدايته على قدر كبير من السرعة التي حكتها ظهوراته اللفظيَّة التي تكلَّمت عليها.

و لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ الخطاب القرآنيّ قد ذكر السفينة في التمهيد للمشهد الطُّوفانيّ. يقول تعالى: { وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحْيِنَا وَ لَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُغْرَقُونَ * وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّمَا مَرَّ عَلَيهِ مَلَأٌ مِن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ * } (هود: ٣٧-٣٩). و يقول تعالى: { وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَ هُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَ أَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَ جَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ } (العنكبوت: ١٤-١٥). و على الرغم من ذكره هذا فإنَّ من مظاهر الفخامة و عظم الشأن السكوت عن ذكرها في قلب هذا الحدث وذروته (الجرجاني، ٢٠٠٧: ص٩٤). و لعلَّ هذا السكوت يأتي طلبًا لحمولة دلاليَّة رمزيَّة تتناسب مع الحجم الذي يريد الخطاب القرآنيّ أن ينسب السفينة إليه، فهو حجم معرفيّ كونيّ لا يسعه مألوف الحجم الماديّ هنا؛ ذلك بأنَّها المكان الحافل بالرمز و عناصر الحياة كلّها.

Abstract

The flood scene in the quranic discourse A study according to pragmatic stylistics and postmodernism thinking

By Muhammed Jaafar Al Ardhi

An approach in this research is analysis of semantic dualities group. The first duality is a movement and stability, which surround the flood scene. It is appear in a quranic discourse into heavenly and earthly aspects. The second duality is a natural time and pragmatic textual time, which lead a pragmatist to distinguish between the shortest time of this supernatural event and its spatial union. Third duality is consist from symbolic and reality of especial movement of a prophetic ship.

At last, it seem for me, that these dualities are cooperate to create a discourse of flood. This discourse is open toward many cultural texts.

The semantic words: flood scene, quranic discourse, semantic dualities, pragmatic solution, postmodernism, stranger image, social justice.

مصادر البحث و مراجعه:

١- القرآن الكريم.
٢- الكتاب المقدَّس.
٣- أرمينكو، فرانسواز، ٢٠٠٢: المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، الرباط، مركز الإنماء العربي.
٤- الأصفهانيّ، الراغب، ١٩٩٦: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط٢، دمشق، طليعة النور.
٥- ابن منظور، جمال الدين، ٢٠١٠: لسان العرب، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ للطباعة و النشر و التوزيع.
٥- بوبنر، روديجر، ١٩٩٧: الفلسفة الألمانيَّة الحديثة، ترجمة : فؤاد كامل، القاهرة، دار الثقافة للنشر و التوزيع.
٦- جبل، محمَّد حسن حسن، ٢٠١٢: المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل لألفاظ القرآن الكريم، ط١، القاهرة، مكتبة الآداب للطباعة و النشر و التوزيع.
٧- الجرجاني، عبد القاهر، ٢٠٠٧: دلائل الإعجاز، تحقيق : محمَّد رضوان الداية، فايز الداية، ط١، دمشق، دار الفكر.
٨- راموس، فرانثيسكويوس، ٢٠١٤: مدخل إلى دراسة التداوليَّة – مبدأ التعاون و نظرية الملاءمة و التأويل، ترجمة و تقديم: يحيى حمداي، ط١، العراق، دار نيبور للطباعة و النشر و التوزيع.
٩- روبول، آن. موشلار، جاك، ٢٠٠٣: التداوليَّة اليوم – علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني ، ط١، بيروت، دار الطليعة.
١٠- الرويلي، ميجان، البلاغي، سعد، ٢٠٠٠: دليل الناقد الأدبي، ط٢، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.
١١- الزمخشري، جار الله، ١٩٨٨: الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، بيروت، دار المعرفة.
١٢- الزيدي، كاصد ياسر، ١٩٨٠، ط١، بغداد، دار الرشيد.
١٣- ساندريس، فيلي، ٢٠٠٣: نحو نظرية أسلوبية لسانية، ترجمة: خالد محمود جمعة، ط١، دمشق، المطبعة العلمية.
١٤- سبيلا، محمَّد ، بنعبد العالي، عبد السلام، ٢٠٠٧: ما بعد الحداثة، ط١، الدار البضاء، دار توبقال.
١٥- السيوطي، جلال الدين، ١٩٨٤: معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه و صحَّحه: أحمد شمس الدين، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية.
١٦- الشاوش، محمَّد، ٢٠٠١: أصول تحليل الخطاب في النظريَّة النحويَّة العربيَّة – تأسيس " نحو النص "، ط١، تونس، المؤسسة العربية للتوزيع.
١٧- شبل، عزَّة، ٢٠٠٩: علم لغة النص-النظرية و التطبيق، ط١، القاهرة، مكتبة الآداب للطباعة و النشر و

التوزيع.
١٨- الشهري، عبد الهادي بن ظافر، ٢٠٠٤: استراتيجيّات الخطاب – مقاربة لغويّة تداوليّة، ط١، لبنان، دار الكتاب الجديد المتّحدة.
١٩- صحراوي، مسعود، ٢٠٠٥: التداوليّة عند العلماء العرب – دراسة تداوليّة لظاهرة " الأفعال الكلاميّة " في التراث اللسانيّ العربيّ، ط١ ، بيروت، دار الطليعة.
٢٠- طحّان، زينب، ٢٠١٤: " نوح " في سينما ما بعد الحداثة، لبنان، جريدة الأخبار، ٨أيار، العدد: ٢٢٨٨.
٢١- الطوسي، أبو جعفر، ٢٠٠٤: التبيان في تفسير القرآن، تحقيق : أحمد حبيب قصير العاملي ، ط ١ ، إيران، مكتب الإعلام الإسلامي.
٢٢- العارضي، محمّد جعفر، ٢٠١٨: الأثر الدلالي لحذف الاسم في الخطاب القرآني – دراسة قصديّة في الإعجاز، ط١، لبنان، دار و مكتبة البصائر.
٢٣- العسكري، أبو هلال، ١٩٨٦: الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، بيروت، منشورات المكتبة العصرية.
٢٤- العمادي، أبو السعود، ١٩٩٩: تفسير أبي السعود، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية.
٢٥- فرج، حسام أحمد، ٢٠٠٧: نظرية علم النص-رؤية منهجيّة في بناء النص النثري، ط١، القاهرة، مكتبة الآداب للطباعة و النشر و التوزيع.
٢٦- الفيروز آبادي، مجد الدين، ٢٠٠٩: القاموس المحيط ، مجد الدين الفيروز آبادي ، رتّبه و وثّقه : خليل مأمون شيحا، ط٤، بيروت، دار المعرفة للطباعة و النشر و التوزيع.
٢٧- مصطفى، بدر الدين، ٢٠١٢: فلسفة ما بعد الحداثة، ط١، عمّان، دار المسيرة للنشر و التوزيع و الطباعة.
٢٨- مرزة، سعد حاتم، ١٩٩٥:معجزة القرآن و الطُّوفان بين العلم و الإيمان، ط١، بغداد، مطبعة الحوادث.
٢٩- نحلة، أحمد محمّد، ١٩٨٦: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، الإسكندريّة، دار المعرفة.